رأي القدس

فتنة الحرب الأهلية في العراق

■ كان السيد مقتدى الصدر الزعيم الشيعي المعروف الأكثر حكمة من بين اقرانه عندما رفض تحميل الطائفة السنية مسؤولية الاعتداء الاجرامي الذي استهدف مرقد الامامين علي الهادي والحسن العسكري في مدينة سامراء. وقال ان الاحتلال الاجنبي والحكومة العراقية المنبثقة عنه هما المسؤولان عن هذه الجريمة وكل الجرائم الاخرى التي تقع بشكل مضطرد في العراق بصفة يومية.

الاعتداء كان يرمي الى تفجير حرب اهلية بين الطائفتين الاسلاميتين، السنة والشيعة، بهدف اشغال العراقيين عن الاحتلال والامراض السياسية والنفسية التي زرعها في العراق، من حسن الحظ ان ابناء الطائفتين وقياداتهما على وعي كامل بالاهداف التي يرمي الى تحقيقها هذا العمل الاجرامي، وعبروا عن هذا الوعي من خلال المظاهرات المشتركة والمنفصلة التي انطلقت في مختلف انحاء العراق احتجاجا واستنكارا.

الهجمات التي استهدفت اكثر من ثلاثين مسجدا من مساجد السنة في بغداد ومدن اخرى تمثل رد فعل غير مسؤول من قبل بعض الجهات التي تقع في مصيدة هذه المخططات الرامية الى اشعال فتيل الحرب الاهلية، وبما يؤدي الى تقسيم العراق.

المظاهرات السلمية حق مشروع، واسلوب مثالي لتنفيس الاحتقان والغضب تجاه هذا الاعتداء الاجرامي، ولكن ما هو غير مشروع واجرامي ايضا هو اقتحام المساجد وقتل الأئمة والمصلين الابرياء كرد فعل على نسف المرقد في سامراء.

ان «حرب المساجد» هذه ما هي الا نتيجة أولية لسياسات الشحن الطائفي التي تمارسها الحكومة العراقية والوزراء الطائفيون الذين يتولون المناصب الاساسية فيها. مثلما هي نتيجة لاعلام عراقي تحريضي سمم الاجواء، ونسف كل امكانيات التعايش بين ابناء البلد الواحد، من خلال برامجه الطائفية الانتقامية النزعة والتوجه.

العراق بحاجة الى من ينصح ابناءه بالتعقل والتبصر، والترفع عن التقسيمات الطائفية البغيضة، وتكريس ثقافة المحبة والتسامح والغفران والتعايش بين ابناء البلد الواحد.

القادمون من الخارج تحت حماية القوات الامريكية المحتلة هم الذين بذروا بذور الفساد والحقد الطائفي في البلاد، وغذوا نزعة الانتقام والثأر، لان هؤلاء كانوا وما زالوا جزءا اساسيا من مشروع التقسيم والتفتيت لا البناء والتلاحم، وعندما فشلوا في حكم العراق، وتلبية احتياجات ابنائه في الأمن والاستقرار واعادة الاعمار وتوفير الخدمات الاساسية، اشعلوا نيران الحقد الطائفي، وقدموا هدية قيمة للجماعات الارهابية المندسة، والممولة من القوات الاجنبية، وتعمل تحت حمايتها.

فمن تدرب في دهاليز المخابرات الامريكية والاوروبية، وسخّر نفسه في خدمة مخططاتها في العراق والمنطقة بأسرها، لا يمكن ان يكون ولاؤه للوطن وللعقيدة، وانما لمن دربه وهيأه وانفق عليه في المنافي الفخمة، واعاده الى العراق ليتبوأ اعلى المناصب والمواقع.

عراقيو الداخل كانوا دائماً متعايشين متآلفين، متزاوجين يصعب التفريق بينهم على اساس الطائفة او الدين او العرق، تحملوا سنوات الحصار الظالمة، ودافعوا عن وطنهم وهويته العربية وانتمائه الاسلامي، ولكن هذه اللحمة القوية الصلبة لم تتعرض للاهتزاز الا بعد مجيء الاحتلال والجماعات التي سهلت له مهمته، وانخرطت في مخططاته.

القيادات العراقية، الشيعية والسنية، اظهرت قدرا كبيرا من المسؤولية والحرص عندما سارعت بادانة الاعتداء الاجرامي، وطالبت بالهدوء وضبط النفس، والمأمول ان يستمر النهج نفسه في الايام الحرجة المقبلة حتى تنقشع هذه الغمامة، وتتبدد سموم هذه الفتنة التي لا يمكن ان تخدم الا اعداء العراق والمسلمين.

عندما تصبح حدود الامبراطوريات دامية

د. بشير موسى نافع *

■ يستعير هذا المقال عنوانه من أطروحة أستاذ العلوم السياسية الامريكي صموئيل هنتنغتون؛ ولكن الاستعارة هنا معكوسة بعض الشيء. ما أشار إليه هنتنغتون في مقالته وكتابه الشهيرين حول صراع الحضارات أن حدود الإسلام باتت دامية، نظراً لحالة النهوض الإسلامي العالمية التي تصطدم بقوى مسيطرة على مصائر المسلمين. ولكن ما أغفله أغلب المعلقين على مقولات هنتنغتون، بما في ذلك المسلمون منهم، ان موضوعة صراع الحضارات تقوم على الاعتقاد بأن هيمنة النموذج الحضاري الغربي على العالم تواجه تحديات كبرى، وأن هذه التحديات لا تقتصر على التحدي الإسلامي، وإن كان هذا التحدي يمثل الأهم بينها. وكما كل الأنظمة الحضارية والثقافية المهيمنة عبر التاريخ، فإن القوى الغربية ستواجه هذه التحديات بكل عنف ممكن. القوى المهيمنة لا تتخلى عن مواقعها طوعاً وسلماً. ومن هنا يتولد صراع الحضارات.

بالرغم من وجاهة بعض من جوانبها، فإن أطروحة هنتنغتون، التي تعود إلى دائرة الاهتمام والجدل في ظل حركة الاحتجاج الإسلامية الواسعة على نشر الرسوم الدانماركية المسيئة لنبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم)، ترتكز إلى بعض من الفرضيات الإشكالية. منها، مثلاً، رؤيته للكتل الحضارية، التي تقوم على تصور لا يأخذ في الاعتبار التداخل الكبير بين الثقافات وأنماط الحياة والاجتماع والقيم الجمالية والأخلاقية. قبل أربعة أو خمسة قرون، كان ممكناً ربما الحديث عن حدود ما بين كتلة حضارية إسلامية وأخرى صينية وثالثة مسيحية غربية (وإن بدرجة نسبية كذلك). ولكن التقدم المطرد في حركة الاتصال، من السفن البخارية إلى السكك الحديدية، ومن الطباعة إلى التلغراف، ومن الطائرة إلى الإنترنت، جعلت تلك الحدود وهمية إلى حد كبير. ولا يمكن إغفال الدور الذي قام به النظام الإمبريالي، الذي كان نظاماً عالمياً، وضع شعوباً تمتد من أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي إلى جنوب شرق آسيا وأستراليا، تحت سيطرة قوى أوروبية غربية لعشرات السنين. أدخل المستعمرون إلى المناطق المستعمرة لغتهم وثقافتهم وأنماط إدارتهم وأنظمة حكمهم، وربطوا الكثير من البلدان المستعمرة بالمركز الأوروبي، اقتصادياً وتجارياً، بروابط لم تنقطع حتى بعد نهاية الاستعمار المباشر.

ثمة أدلة قوية على الأصول البيزنطية لنظام الحسبة الإسلامي التقليدي، وربما حتى لمؤسسة الوقف التي تركت أثراً بالغاً على الإجتماع الإسلامي لقرون طوال. ولكن العلاقة بين الثقافات والمواريث الحضارية خلال القرن الأخير فاقت بكثير مجرد التأثير المنقطع والاستعارة الانتقائية. فأنظمة التعليم السائدة في عالم اليوم، بما في ذلك العالم الإسلامي، هي أنظمة غربية. ليس ذلك وحسب، بل ان الكتب المدرسية والجامعية، من حقل الرياضيات إلى المنطق والفلسفة، هي كتب غربية أو تستند إلى مصادر غربية. وما ينطبق على التعليم، وهو الحقل الأهم لتشكيل المشترك الثقافي في المجتمعات الحديثة، ينطبق أيضاً على الأنظمة العدلية والقضائية، وحتى على القوانين ذاتها؛ وينطبق على نظام الحكم والدولة، ومفهوم هذه الدولة وعلاقتها بالمجتمع؛ وينطبق على حقلي الاقتصاد والتجارة والتسوق والاستهلاك، قوانين وأنظمة وسلوكاً؛ وينطبق على حقل الفنون السمعية والمرئية، من الموسيقى إلى الدراما؛ وينطبق بالطبع على أنماط العمارة وتخطيط المدن. فالحديث عن كتل حضارية صماء يمثل استدعاء للتاريخ أكثر منه استطلاعاً للزمن المعاش؛ وتوفر مؤشرات السياحة الجماعية وحركة الهجرة الكثيفة من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق، ومن آسيا غير الإسلامية إلى دول النفط، لأسباب ودوافع مختلفة، دليلاً واضحاً على اضمحلال الحدود الحضارية حتى على مستوى الإنسان الفرد.

هذا لا يعني بالطبع ان العالم أصبح مسطحاً، وأن الفوارق والألوان والخصوصيات قد اختفت، أو أنها يمكن أن تختفي نهائياً في المستقبل. التعددية الثقافية والقيمية، التي يشكل المعتقد الديني أحد أهم روافدها، ستبقى ربما ما بقي المجتمع الإنساني. وليس هناك من شك في أن الإسلام يشكل أكثر الروافد الدينية حيوية في العالم المعاصر. وهنا، ربما تقع الإشكالية الرئيسية في فهم هنتنغتون للعالم. فإلى جانب دائرة المشترك الإنساني المتسعة، ثمة خصوصيات عقدية وقومية وثقافية تعبر عن نفسها في صيغ مختلفة، وليس بالضرورة فيما يمكن أن يطلق عليه المكون الجوهري لهذه الخصوصيات. فالخصوصية الإسلامية المعاصرة لا تتعلق، مثلاً، بصوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس في مواقيتها. فهذه ليست موضع صراع وتدافع داخل المجتمعات الإسلامية أو بين الكتلة الإسلامية والقوى الغربية. تعبيرات الخصوصية هي في أغلبها ذات إطار سياسي واقتصادي وثقافي. بل أن اتساع دائرة المشترك، يصبح هو نفسه قوة دفع لهذه التعبيرات. إذ ان القوى المسيطرة لا تترك للتقارب العالمي فرصة التفاعل الطبيعي والسلمي، بل تعمل على استخدامه أداة إضافية للسيطرة الثقافية والاقتصادية. والسبب، بالطبع، هو النظام الإمبراطوري للقوة (أو القوى) المهيمنة على الشأن العالمي، وسعيها العنيد وغير العقلاني لتأبيد هذه الهيمنة.

عندما تبدأ في فقدان موقعها المهيمن، تصبح حدود الإمبراطوريات دامية بالضرورة. هذا هو تاريخ الإمبراطوريات، وهذه هي السمة الأبرز للنظام الدولي المعاصر. في حالات القوة والسيطرة المطلقة، لا تحتاج الإمبراطوريات العنف والقوة المسلحة لتأمين موقعها؛ لأن مجرد التلويح بالقوة سيكون كافياً لفرض الطاعة والانصياع. ولكن ما أن تأخذ الشعوب والأمم الواقعة تحت السيطرة في البحث عن الحرية والاستقلال، أو ما ان تلحظ علامات ضعف وتراجع في وضع القوى المسيطرة والمهيمنة، حتى تفتح أبواب جهنم للموت والدمار والحروب: حروب الباحثين عن الحرية والساعين إلى توكيد نظام الهيمنة وتأمينه. اشتعلت حدود الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بالحروب المتصلة ضد شعوب الشمال والشرق؛ أما السلام العثماني الطويل، فقد تحول إلى سلسلة من الحروب الدامية منذ بداية القرن التاسع عشر، مرة ضد شعوب البلقان ومرة ضد الشعوب الإسلامية العثمانية. ولكن الغرب الحديث نجح نجاحاً كبيراً في تسليم مقاليد الشأن العالمي من قوة إلى أخرى. ويكاد تاريخ النظام الدولي في القرنين الماضيين ان يكون تاريخ التدافع والتنافس والتوافق بين القوى الأوروبية الاستعمارية، وبينها وبين الولايات المتحدة الامريكية. ما ساعد الكتلة الغربية في الحفاظ على موقعها المسيطر، كان التعقيد غير المسبوق الذي أقامه النظام الإمبريالي للربط بين المركز والأطراف، التراكم الهائل للثروة والقوة في القرنين الماضيين، والنزعة العقلانية النقدية التي ميزت علاقات السيطرة الحديثة.

بيد أن نظام السيطرة والهيمنة الغربي ما كان له ان يتأبد، وكان عليه عاجلاً أو آجلاً أن يواجه تحديات البحث عن الحرية والاستقلال النابعة من الخصوصيات الثقافية والدينية والقومية. في الوقت الذي ما تزال فيه روسيا ما بعد الشيوعية حائرة بين انتمائها الأوروبي الغربي والخصوصية الروسية، تبرز الصين باعتبارها قوة اقتصادية عالمية هائلة، تمتلك الكثير من مقومات التحول إلى قوة عسكرية وسياسية منافسة للكتلة الأطلسية. وبينما يغلب على القلق الغربي تجاه الصين خطاب التنافس التجاري وأسعار العملات وحقوق الإنسان، فإن حجم الحشد والرقابة العسكرية الامريكية للصين بلغ مستويات مرعبة. ولكن حرباً باردة أو ساخنة ضد الصين ستكون أكثر تكلفة وأثراً على الشأنين الغربي والعالمي مما كانت الحرب ضد الاتحاد السوفياتي. أولاً، لأن أحداً في العالم لا يعتبر الصين قوة إمبريالية جديدة أو خطراً على ثقافته ونظامه السياسي. وثانياً، لأن الصين تتحول تدريجياً إلى جزء لا يتجزأ من النظام الاقتصادي والتجاري العالمي، يصعب التخلص منه بدون عواقب وخيمة على الوضع العالمي كله. وفي امريكا اللاتينية، الحديقة الخلفية للولايات المتحدة، والتي ربطتها دائماً علاقات متناقضة من الإعجاب والكراهية والتبعية بالجار الشمالي القوي، ثمة حركة متسعة للتحرر من السيطرة الامريكية، تغذيها تقاليد كاثوليكية عميقة للعدل الاجتماعي، وحيوية ثقافية متصاعدة في أوساط السكان الأصليين.

وبالرغم مما يبدو من سلوك امريكي متعقل تجاه الديمقراطيات اليسارية الجديدة في امريكا اللاتينية، فليس لنا ان نتوقع استمرار هذا التعقل. وربما لن يمر زمن طويل قبل أن تزدحم سماء العلاقات بين واشنطن والعواصم الامريكية اللاتينية بالقوات المحمولة جواً، والانقلابات العسكرية. ولكن الثمن هذه المرة سيكون باهظاً بلا شك؛ فعالم مطلع القون الحادي والعشرين ليس عالم الستينات من القرن الماضي.

وهناك، قبل ذلك وبعده، العالم الإسلامي، الجار اللصيق بالكتلة الأطلسية، والمنافس التاريخي للغرب الأوروبي، والضرورة الاقتصادية والاستراتيجية لنظام الهيمنة الإمبراطوري. بشيء من التوازن والتأمل التاريخي، يصعب ان نرى أحداث السنوات الخمس الماضية مجرد ردود فعل على هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). ففوق أن الهجمات على نيويورك وواشنطن، بكل بشاعتها وعبثيتها، لم تترك أثراً ملموساً على القوة الامريكية الاقتصادية والعسكرية، فإن الحرب على الإرهاب لم تتعامل مع الإرهاب فقط، ولا حتى مع الإرهاب في شكل رئيسي، بل تحولت إلى عسكرة شاملة للنظام العالمي وللعلاقة مع العالم الإسلامي على وجه الخصوص. من الحرب على أفغانستان إلى الاجتياح الإسرائيلي لمناطق السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية ومعظم قطاع غزة، ومن غزو العراق إلى تهديد إيران وسورية ولبنان، ثمة شعور امريكي متزايد بالخشية من فقدان السيطرة والهيمنة، وسعي دموي، بالغ العنف، لمواجهة نزعات التحرر والاستقلال مهما كانت التكاليف والعواقب.

كان مطلب الجلاء العسكري الامريكي عن الجزيرة العربية، الذي أسس لهجمات نيويورك وواشنطن، هو مطلب بسيط ومحدود؛ وقد انتهت القوات الامريكية بالفعل إلى الخروج من السعودية، وإن لم يكن من كل الجزيرة. وبالنظر إلى الانهيار المتتالي لكل مبررات غزو العراق، وبشاعة النظام الذي أقامه الاحتلال، من تعذيب وقتل في السجون الامريكية، إلى فرق الموت والاغتيال في وزارة الداخلية، إلى المجزرة شبه اليومية للمدنيين العراقيين الأبرياء، فقد بات خروج قوات الاحتلال مطلباً عراقياً وطنياً ومطلباً أخلاقياً إنسانياً في الآن نفسه. وليس من الصعب رؤية المفارقة المدهشة في رفض الاعتراف بالنفوذ السوري في لبنان، واعتبار لبنان جزءا لا يتجزأ من دائرة النفوذ الفرنسي أو الامريكي. ومن السعي الإيراني لامتلاك التقنية النووية، إلى المطلب الإسلامي باعتذار دنماركي واضح عن الإساءة لنبي الإسلام ومحاكمة المسيء، تبدو قضايا الخلاف بين العالم الإسلامي والكتلة الأطلسية، بسيطة، وممكنة الحل والتفاهم التفاوضي. ولكن الإمبراطوريات لا تتفاهم، بل تسيطر وتهيمن؛ وما ان تستشعر التحدي لنظام الهيمنة والسيطرة حتى تصطبغ حدودها بالدماء. وإن تفاقم الصراع على مستقبل العالم من المنطقة الإسلامية إلى مناطق أخرى، مثل روسيا والصين ووسط آسيا وامريكا اللاتينية، فلنا ان نتصور حجم الرعب الذي ينتظر البشرية. وحتى يولد نظام عالمي جديد، أكثر عدلاً وإنصافاً، فليس لأحد أن يغامر بالتنبؤ بتكلفة هذه الحقبة من التاريخ الإنساني.

* كاتب وباحث عربي في التاريخ الحديث

في مواجهة الظاهرة الامريكية

د. علي محمد فخرو

■ الظاهرة الامريكية لم تعد أمراً هامشياً في حياة العرب والمسلمين قد تثير الدهشة أو الاستحسان أو الاشمئزاز. لقد أصبحت ظاهرة تمس حاضر ومستقبل المنتسبين للعروبة والإسلام وبشكل عميق ومتنام لا يقل في وزنه عن ظواهر خاصة بنا من مثل التخلف أو التجزئة. نحن أمام ظاهرة مركبة تختلف في تعاملها معنا عن تعاملها مع العالم كله.

من جهة أولى هناك التحالف الوثيق بين الأصولية المسيحية وبين الأصولية اليهودية ـ الصهيونية. وهو التحالف القائم على عقيدة خرافية تؤمن بأن لا خلاص لهذا العالم إلاّ بعودة المسيح ولا عودة للمسيح إلاّ بعد عودة جميع يهود العالم إلى فلسطين. وهذا سيعني أننا لسنين قادمة سنتعامل مع امريكا السُّاعية بكل إمكانياتها الهائلة لتحقيق ذلك الحكم التوراتي على حساب أرض وتقدم واستقرار مجتمعاتنا.

من جهة ثانية هناك التماثل في الفكر والممارسة بين الإيديولوجية النازية وبين الإيديولوجية السياسية التي تهيمن على القيادة السياسية ـ العسكرية في واشنطن. في قلب النازية مما كتبه أدولف هتلر في كتابه «كفاحي» «إن الإقناع بمبررات استعمال أكثر الأسلحة توحشاً وقسوة يعتمد دوماً على وجود عقيدة متطرفة ترى ضرورة لانتصار نظام راديكالي جديد في العالم» اليوم، في واشنطن، حيث توجد العقيدة المتطرفة التي ترى في نظام حياتها الجديد أملاً للإنسانية، وحيث لا كلمة في قاموس تلك العقيدة إلاّ كلمة الانتصار، يجرى تطبيق تلك المقولة النازية بحذافيرها في تعامل أمريكا على الأخص مع العالمين العربي والإسلامي. وتكتمل الصورة في التشابه بين الأسس النفسية التي حكمت قائد الحركة النازية، نفسية السايكوباث التي لا تعرف وخز الضمير، وبين الأسس النفسية التي تحكم قائد الجوقة في واشنطن. يذكر الكاتب الامريكي جوستن فرانك بأن المحلّلين النفسيين الامريكيين وصفوا رئيسهم بأنه مغرور وأناني وإن الأذى الذي يصيب به الآخرين لايؤدّي إلى عذاب ضميره. نحن هنا أمام ظاهرة بالغة الخطورة: عقيدة خرافية لاعقلانية متجذرة في عقول من يقودون أقوى دولة في العالم، ممارسات فاشستية لكل أسلحة التوحش والقسوة والحياد البارد، وقيادة مريضة نفسياً قادرة على الخلط بين الخير والشر وبين الله والشيطان. لنتذكر ما كتبه شكسبير في مسرحية «تاجر البندقية» من «أن الشيطان كثيراً مايستشهد بأقوال الكتب السماوية من أجل تحقيق أهدافه» ألسنا نشاهد بين الحين والآخر قيادة واشنطن وهي تحيلنا إلى ماقاله الله وقاله المسيح؟

إن العالم كله يتحدث الآن عن الأخطار التي تحيق بالبشر من جراء التصرفات الامريكية في حقول الحروب والاقتصاد والسياسة والثقافة. لكن هناك فرقا بين بقية العالم وبيننا. فإذا كانت دولة من هنا أو هناك يصيبها رذاذ الأمواج الامريكية الهائجة بين الحين والآخر، فإننا، نحن العرب والمسلمين، تضربنا يومياً وبلارحمة تلك الأمواج العاتية. بالنسبة لنا، أصبحت مواجهة الأموال الامريكية المجنونة مسألة حياة وموت. ففي العراق تستعمل أسلحة الموت العسكرية وفي فلسطين أسلحة الابتزاز والتجويع، وفي لبنان وسورية أسلحة الإعلام الكاذبة وفي إيران المسلحة سلاح المنع لامتلاك التكنولوجيا المتقدمة، وفي الخليج سلاح الاحتلال وسرقة الثروات الطبيعية، وفي كل مكان التدخل اليومي في الشؤون الداخلية في كل حقل ابتداء بالسياسة وانتهاء بالتربية والدين. وفي كل ذلك تردد القيادة الامريكية قول شكسبير في راوية هاملت «لا بد أن أكون قاسياً حتى أكون رحيماً» ولاتوجد قسوة في الدنيا لم تمارسها أمريكا معنا بعد، ولاتوجد رحمة في الدنيا لم تمنعها أمريكا عنا بعد.

للمشروع النهضوي العربي ستة أهداف هي الوحدة والتنمية والاستقلال والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتجدد الحضاري. الظاهرة الامريكية تتناقض مع جميع هذه الأهداف والتعامل الحالي الرسمي والشعبي مع تلك الظاهرة محدود ومبعثر ومتقطع وغير فاعل. إننا أمام مشكلة تاريخية كبرى، فما الذي يمكن فعله؟ سنحاول في الأسبوع القادم طرح بعض من النقاط للمناقشة.

استراتيجية التدخل الأممي في السودان

د. يوسف نور عوض *

■ أصبح واضحا أن هناك مخططا دوليا يستهدف السودان لأغراض استراتيجية تخص بعض الدول الكبرى، فهل السودان قادر على مواجهة التحديات الخارجية؟

الحكومة السودانية تبدو في الداخل وكأنها صامدة أمام التحديات التي تواجهها، ولكن كما قال «بان يرونك» مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة فإن مواقف التحدي سمة معروفة في الحكومة السودانية، وهي في نهاية الأمر ترضخ لما هو مطلوب منها، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في محادثات الجنوب فهل تلك ـ بالفعل حقيقة الحكومة السودانية؟

نقول أولا إن التحديات التي تواجهها هذه الحكومة أكبر بكثير من الإمكانات المتاحة لها، وهي بكل تأكيد لا تستطيع مقاومة ضغوط تقف وراءها دول كبرى إلا إذا كانت هناك مساعدة خارجية من دول ترى أن من واجبها تقديم الدعم لحكومة السودان. فهل هناك دول مرشحة لتقديم هذا العون؟

لحظنا خلال مفاوضات الجنوب أن الاتحاد الأفريقي قدم دعما قويا للحكومة السودانية لأن الاتحاد كان يرى من مصلحة دوله أن يحل ذلك الإشكال، وقد استمر الاتحاد بعد ذلك في تقديم الدعم للحكومة السودانية في مشكلة دار فور على أمل أن تتوصل إلى حل يشبه الحل الذي توصلت إليه في جنوب السودان، وتمثلت مساعدة الاتحاد الأفريقي الأساسية في رفضه أول الأمر إرسال قوات أجنبية إلى إقليم دار فور ما دام بإمكانه إرسال تلك القوات اعتمادا على إمكاناته الخاصة ولكن بعد فترة قليلة اتضح أن الاتحاد الأفريقي غير قادر على مواصلة الطريق إلى نهايته لأنه لا يستطيع بمفرده أن يمول تلك القوات وهو لا يجد دعما من القوى الأجنبية وبالتالي بدأ الاتحاد يرسل إشارات إلى المجتمع الدولي بأنه سينظر في أمر إرسال قوات دولية إذا كان ذلك ضروريا بسبب عجزه عن القيام بالمهمة وحده. ولا شك أن الاتحاد الأفريقي بدأ يستمع إلى الأصوات التي تأتيه من الخارج والتي تصور الأمر في دار فور على أنه صراع بين الثقافة العربية الإسلامية من جهة والزنوجة والثقافة الأفريقية من جهة أخرى، وتلك فرية تستهدف في الأساس تجريد شمال السودان من أصوله الأفريقية بشكل كامل. وقد تمثل موقف الاتحاد الأفريقي بشكل سافر في مؤتمر القمة الأخير في الخرطوم حيث رفض المؤتمر السماح للسودان برئاسة الاتحاد الأفريقي كما جرت الأعراف بذلك عندما تنظم إحدى الدول مؤتمر القمة على أراضيها بل ووجه الاتحاد الأفريقي إنذارا إلى الحكومة السودانية بأن رئاستها للاتحاد رهن بتطور الموقف في دار فور في اتجاه الحل.

ولم تكن القمة موجهة نحو السودان وحده بل كانت موجهة أيضا نحو الدول العربية المشاركة في القمة التي اختفى صوتها بشكل نهائي وكأنها لم تعد جزءا من هذا الكيان الأفريقي، وبالتالي لم تعد الدول العربية قادرة على تقديم أي دعم للسودان كما لم تستطع الجامعة العربية أن تدعم موقفه في وجه التحديات الدولية لأن الجامعة العربية تعيش اضعف مراحلها بعد أن أصبحت جسدا بلا روح وأصبحت غير قادرة على أن توحد كلمتها وهي تواجه تحديات كبرى كتلك التي تجري في العراق ولبنان وسورية وليبيا وغيرها من الدول العربية.

وبالطبع لم يكن من الممكن أن يعتمد السودان على صداقات دول أجنبية مثل روسيا والصين وبعض دول الاتحاد الأوروبي التي ترتبط معه بمصالح اقتصادية، فقد رأينا بعض المواقف القوية من الصين وروسيا في مجلس الأمن ولكن مثل هذه المواقف لا يعتمد عليها، وهي في نهاية الأمر لا تصمد حتى نهاية الطريق، فكم من مرة تظاهرت روسيا والصين بدعمها لقضايا تعارضها الولايات المتحدة ولكنهما في النهاية رضختا لرغبة الولايات المتحدة والموقف من إيران خير شاهد على ذلك، وبالتالي فنحن لا نتوقع أن يكون موقف السودان في أي ظرف من الظروف أفضل من موقف إيران أو موقف اي دولة من الدول التي تراجعت روسيا والصين عن تأييدها في اللحظات الأخيرة.

والسؤال الذي يواجهنا عند هذه المرحلة هو من هي الدول التي تتربص بالسودان وما الأسباب التي تجعل هذه الدول تقف موقفا عدائنا منه؟

والإجابة لا تستدعي كبير عناء ذلك أن الدولة الأساسية التي تعادي السودان هي الولايات المتحدة وهي التي تصنف السودان من بين الدول التي تدعم الإرهاب وتفرض عقوبات عليه . وقد بذل السودان جهودا كبيرة وتعاون مع الإدارة الأمريكية تعاونا كاملا من أجل أن يكسب صداقة الولايات المتحدة وأظهرت واشنطن جانبا آخر من وجهها حين كانت تريد حلا لمشكلة جنوب السودان واستطاعت أن تخدع السودان بهذا الجانب الآخر ليظن أنه أصبح قريبا من منها ولكن واشنطن سرعان ما قلبت له ظهر المجن وطالب مندوب الولايات المتحدة في مجلس الأمن من المجلس أن يبدأ في بحث البدائل من أجل مواجهة الموقف في السودان بتدخل عسكري أممي وهو ما يرفضه السودان من الناحية النظرية.

وكان من الغريب أن قام الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان في الأيام الأخيرة بزيارة للبيت الأبيض أعلن بعدها أنه تفاهم مع الرئيس الأمريكي جورج بوش بشأن الوضع في دار فور وطلب منه أن يقوم بالمساعدة في حشد تأييد دولي لإرسال قوات أممية إلى الإقليم. ويعلم الجميع أن فكرة إرسال القوات الأممية إلى دار فور ليست فكرة المجتمع الدولي وإنما هي فكرة الولايات المتحدة وحدها وهي التي رفض الكونغرس فيها اعتماد الميزانيات اللازمة لدعم قوة السلام الأفريقية، فلماذا إذن تريد واشنطن إرسال قوات أممية إلى السودان؟ الغريب أن كوفي عنان الذي رهن المؤسسة الدولية لسلطة الولايات المتحدة أراد أن يغطي عليها حين قال إنه لم يبحث مع الرئيس الأمريكي فكرة إرسال قوات أمريكية إلى السودان لأن الوقت مازال مبكرا وهو يعلم أن تلك رغبة الولايات المتحدة إلى لا تعني بالقوات الأممية شيئا غير قوات الولايات المتحدة والنيتو، ولكن النيتو لا يفكر الآن في إرسال قوات إلى السودان لأنه يواجه مشكلات صعبة في أفغانستان وهو لا يريد أن يخوض تجربة صعبة جديدة خاصة هو يعلم أن حكومة السودان لا ترحب بقوات أجنبية على أراضيها.

ويبدو أن بريطانيا استفادت من تجربتها في العراق وظهر من الكلمة التي ألقاها وزير خارجيتها جاك سترو أمام طرفي المفاوضات في أبوجا أنه لم يكن يحبذ فكرة إرسال قوات أجنبية إلى السودان ويفضل بدلا من ذلك فكرة فرض عقوبات أممية وقد قال إن حكومة بلاده سوف تؤيد فرض مثل هذه العقوبات على الحكومة السودانية وعلى المتمردين ولا شك أن قول جاك سترو أن العقوبات يمكن أن تطبق أيضا على المتمردين هو اعتراف صريح بأن هناك بعض الدول الأجنبية تقدم مساعدات للمتمردين، وهو ما يعني أن حركة التمرد في دار فور لا تنطلق فقط من أجندة داخلية بل تقف من خلفها مؤسسات ودول أجنبية.

ولا بد هنا أن نتساءل لماذا ترفض الدول الأجنبية وفي مقدمها الولايات المتحدة فكرة دعم الاتحاد الأفريقي وتفضل بدلا منها فكرة إرسال قوة أممية تكون الولايات المتحدة ودول النيتو الأساس فيها؟

الإجابة ببساطة هي أن الولايات المتحدة أدخلت بالفعل السودان ضمن استراتيجيتها الأمنية والاقتصادية، ويتعلق الجانب الأمني بأمن إسرائيل، ذلك أن الولايات المتحدة تدرك أن إسرائيل محاطة بدول عدوة من أفغانستان إلى السودان وهي بحاجة إلى أن ترتب الأوضاع في كل تلك الدول وهذا سر حربها في أفغانستان والعراق وإثارتها للقلاقل في كل من سورية ولبنان وعدم رضاها من بعض السياسات السعودية والمصرية ومع ذلك هي لا تريد أن تدخل في عمليات عدائية مباشرة مع مصر بل تفضل أن تضعف الموقف في مصر من خلال ترتيب البيت السوداني بأسلوب جديد لن تكون مصر هي الرابحة فيه، وذلك سر اهتمامها بالسودان . وقد حفزها إلى ذلك كون السودان يقع تحت نظام حكم يعلن استراتيجية تحاربها الولايات المتحدة. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن تفجر الثروة النفطية في السودان وخاصة في إقليمي الجنوب ودار فور هو من أقوى العوامل التي تجعل النخبة المسيطرة في الولايات المتحدة تتجه نحو نهب هذه الثروة الكبيرة كما حدث في العراق وهي لا تريد أكثر من السيطرة بضع سنوات من اجل نهب ما يمكن اليمين المتطرف من توفير مزيد من الموارد تدعم قدرته على السيطرة في المجتمع الأمريكي.

ويبدو من كل ما ذكرناه أن السودان بإمكاناته الحالية غير قادر على مقاومة التحديات التي تواجهه وهي معركة لا يستطيع الانتصار فيها، ولكنه يستطيع أن يفشل المخططات الأجنبية إذا أدرك القائمون على الحكم فيه أنهم بحاجة إلى تغيير الاستراتيجية الشاملة للدولة بجعل المسؤولية فيها لجميع مكونات شعبها وليس لنخبة استطاعت في غفلة من الزمن السيطرة على كل المقدرات وحولت كل الامكانات لمصلحة فئة محدودة دون إدراك لان الطريق الذي تسير عليه هو الذي سيوصل إلى نهاية الدولة الموحدة في السودان.

* كاتب من السودان

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 0208 (6 خطوط).
فاكس: 8902 741 0208 أو 7637 748 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 Fax: 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364